مقدمة الطبعة الثانية

لم تستذل — فى هذا العصر — شعوب كما استذلت شعوب الشرق ، ولم يستغل شىء — فى هضم حقوقها — كما استغل الدين ؟ ! !

لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت ، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالى ؛ كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين ! ! . وبذلك أصبحت الأمة مضيعة بين استذلال عنيد واستغلال منافق ، وأصبح الدين مسخراً فى ميادين شتى لتسويغ الحيف ، والتقليل من خطره فكان حقاً علينا — كمؤمنين — أن ننصف الدين من الأوضاع التى شانت حقيقته وكان لزاما علينا كمواطنين أن ننصف الوطن من الأنظمة التى ظلمت أهله ، وأكلت ثروته ، وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح أن يعلم الناس علم اليقين أن الدين فى خدمة الشعوب لا فى خدمة فرد أو أفراد ! ! !

ومن ثم فلا بد من منهج يقوم على عمل مزدوج يتمشى فيه جنباً إلى جنب حماية حقيقة الدين ، وصيانة حقوق الناس .. إننا نقدس حق الإنسان فى أن يعيش حر العقل والضمير . . . ونقدس آمال الطبقات المختلفة فى أن تعيش متكافئة الدماء ، متآخية على السراء والضراء ، متساوية فيما تحمل من واجبات وأعباء ، ونقدس حق المجتمع فى أن يسير إلى الأمام قدما وأن يتخلص من الطوائف التى عاقت تقدمه وعاشت فيه فلم يستفد منها شيئاً قط ، واستفادت هى منه كل شىء ! ! !

ونريد أن نصفى المنابع التى تستقى الأمة منها هذه الأفكار .

والناس لم يألفوا أن يعرض الدين عليهم بهذا الأسلوب الحر ! بل ألفوا أن يأخذوا أنصبتهم من الحياة الصحيحة بعد تجارب طويلة من أحوال الدنيا . وبعد كفاح مرير مع الطغاة والجبارين .

وقلما استهدى الناس — فى أزماتهم الأخيرة — بأشعة السماء فى تلمس

الطريق إلى الخلاص مما يعانون ، بيد أن هـذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، فإن هداية السماء للأرض لم تفقد بريقها ولا رونقها أما العوائق التى حالت دون نفع الناس منها ، فقد آلينا على أنفسنا أن نسقطها إسقاطاً لا قيام لها بعده . . . كانت آيات الدين تكتب فى ألواح مذهبة ثم تعلق على جدران القصور ، أو كانت تصاغ فى ألحان عذبة ثم ترسلها الأصوات الحنون ، وكان رجال الدين الصف الأول فى مواكب العظماء الفخمة ، وكانت الأديان مكلفة أن تبارك الموائد الحافلة وتنحنى لأصحابها ، وأن تواسى الجماهير الجائعة وتصبرهم على لأواء الحياة وبأسائها . . . حتى ظهر الإسلام فكفر بهذه الأباطيل كلها . إنها تزوير على الله وكذب على دينه إن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها ، وليست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة بل هى زلازل تدك بنيانها وتغل طغيانها وما كان الوحى يوما ما غناء مطربين ولا تراتيل دجالين وإنما هو نذير العدل يصرخ فى آفاق الحياة باستنكار البغى والعدوان . « وما الله يريد ظلماً للعالمين » .

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا فى ركاب العظماء ! فهل هـذه إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا ؟ ! . إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة فلن يعجزوا عن الارتفاع بمستوى العبيد « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض » .

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به فهذه جريمة . بل يقول الإسلام للرجل المغصوب فى ماله أو المنكوب فى عرضه « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » . . . لا تستسلم أبداً . . . إن الدين فى خدمتك يضع السلاح فى يمينك ، ويضع

الأمل فى قلبك ، ويضع الأصرار فى إرادتك ، ويكلفك أن تستميت دون حقك . إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باسمهم نفر قلائل من حثالة الناس أو من قادتهم العظام إنما بعثوا ليستريح البشر كافة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون الدين لخدمة الشعوب لا لسلب الشعوب واستغلال بنيها واستذلال أحرارها .

لشد ماغلبت أمم على أمرها وذاقت ضراوة الوحوش من مستعمريها أو . . . من حكامها ، وطالما تلفتت إلى الأرض وإلى السماء تلتمس النجدة ! ! !

لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها ثم كفرت بالدين لما ترقبت معونته فلم يسعفها بها . أما هنا فى الشرق فلن تتكرر المأساة الدامية ! لن ندع الناس يكفرون لا بالدين ولا بالدنيا ، سنقدم لهم التأمين الاجتماعى مشرباً بروح الإيمان الحر . . . أو الإيمان بالله مفرغا فى نظام من الحرية والأخاء والمساواة ذلك هو الدين كما أنزل من عند الله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وما كان الدين مخدرا للشعوب كما يقول فيه الساخرون . ولا كان مخدراً للشعوب كما يصنع منه المسخرون . ولا مكان معه لشيوعية ولا رأسمالية . . . خطتنا الفذة أبداً هى . . . مع المظلوم حتى ينتصر وعلى الظالم حتى ينكسر ، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من آسريها وتثأر لنفسها من قاهريها . . . !

* * *

يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان . لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم فضعوا أيديكم فى يده . إن الشقاء التى تأمر بإذلالكم يجب أن تقص والأوضاع التى تغتال حقوقكم يجب أن تقصى ! . والفراغ الذى خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد يجب أن تنزاح غمته إلى الأبد .

ونحن نعلم أن موجات التاريخ الجارفة وثورات الحياة العارمة لم تحدث عقيب وقوع المظالم المحرجة ، بل بعد الشعور بضرها والاكتواء بحرها والغضاضة من بقائها . . .

* * *

لذلك سنوقظ المشاعر المخدرة حتى يعاودها الإحساس ، ونلهب الأجيال المستقبلة حتى تسير مع مواكب الناس ، ونصرخ فى آذان الساهمين الغافلين : « ألا أيها النوام ويحكم هبوا » فقد طال المنام وخذوا أنصبتكم من الحياة الكريمة فقدولى عهد الظلام . إن الدين والدنيا للعاملين لا للقاعدين . ولن نسمح بعد اليوم أن يبتاع بالدين فى سوق الشهوات ، ولا أن يتخذ ذريعة لاسترقاق الأحرار وقهر الشعوب .

فإلى الإسلام الصحيح حتى نريح ونستريح .

١٣٦٩ — ١٩٥٠ محمد الغزالى

مقدمة الطبعة الأولى

هذا بحث مجمل فى موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، اعتمدت فى موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين والفهم المستقل لآثاره الثابتة . ولم أجنح فى هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام أو المفاضلة بين مذهب ومذهب من هذه الأنظمة والمذاهب التى تمخض عنها تطور الفكر الإنسانى فى العصر الأخير فليس هذا ما يعنينى ولست أملك العدة اللازمة لاستقصاء البحث فيه ! وإنما ألفت هذه الرسالة ورتبت فصولها المحدودة لغاية واحدة . هى إعطاء القارىء صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين والروح العامة لمبادئه والموقف الذى قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة وللقارىء بعدئذ أن يقارن ويفاضل ويستخلص من النتائج ما يشاء .

وحاشاى بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له أو أن أحمله من الآراء ما لا شأن له به فما إلى هذا قد قصدت . كل ما أبغيه أن أنصف الدين من سوء الفهم وسوء الاستغلال . فقد أنكرت الشيوعية الدين لأنها حسبته مخدراً للشعوب ومسكناً لآلام الطبقات المظلومة وصارفا لهمم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضيعة . واحتقرت الرأسمالية الدين إذ توسلت به إلى إشباع المطامع الجشعة وإقرار الفوارق الجائرة وتعويق النهضات الحرة ، والدين مظلوم بين من كفروه ومن جحدوه ! بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المتعجرفة ! ولابد من أن نكشف عن حقائقه ، وأن نبين عن معالمه لنرد عنه سوء الفهم وسوء الاستغلال جميعا . والسبيل العادلة إلى ذلك هى تحديد موقفه من نصوصه نفسها . . . وقلما تنصرف النفوس عن الدين لو عرض عليها عرضا صحيحاً نقياً

فإن أسباب الكفر مفتعلة عند أغلب المتبرمين بالتدين وأكثر هؤلاء كافر بمالا معنى للإيمان به مرتاب فيما تجب الريبة فيه ، ولو أتيحت لهم الفرصة وكشف عن أعينهم الغطاء ودرسوا الدين كما أنزل من عند الله لا كما أخذ من أيدى الناس لعادوا من أرسخ الناس دينا وأعمقهم يقينا ! ذلك أن الدين للأسف الشديد مصاب منذ القدم بإضافات زائدة وأفكار فاسدة شابت جوهره ، وعكرت حقيقته ، ولبست تراث النبيين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة ، وعلينا أن نفصل الحق من الباطل ، وأن نميز الخبيث من الطيب حتى لا تختلط أمام النظرات السطحية أسباب الهدى وأسباب الضلال فإذا تميز الخير عن الشر ، وانفصل كذب الأرض عن وحى السماء لم يبق ثمة موضع لسوء الفهم وسوء الاستغلال ! ! ولم يبق على التنكر للدين إلا أقوام من المتنطعين والمتعنتين ، وإلى هؤلاء لا يساق حديث ولا ينتظر إقناع . وقد قرر القرآن هذه الحقيقة — بشأن الدين وما يطرأ عليه من أوهام وما يضاف إلى حقيقته من بدع وخرافات — فقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » . . . أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى لم تكد تسرى فى مجراها من هذه الحياة حتى علقت بها من رواسب البيئات ومخلفات القرون وجهالات العامة وشهوات الخاصة ونزوات الحكام ما ذهب بالكثير من صفائها ونقائها حتى لتشبه ماء « النيل » فى مجراه الأدنى لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده « سماوياً » كما كان .

وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية خضع لهذه الصبغة العامة والسنة المطردة فظن الناس فيه الظنون وتولدت من ذلك رأسمالية جائرة وشيوعية كافرة . . .

ومن حسن الحظ أن الاضطراب الذى أصاب الناس فى أعمالهم وأحكامهم لم يؤثر تأثيراً خطراً على المقياس الذى نتناول به هذه الأعمال والأحكام بالنقد والتخطئة والتصويب فمعرفة الحقيقة لاتزال فى مقدورنا ورسم حدود للدين تنفى ما وراءها عن حظيرته المقدسة أمر سهل . وقد كافح كثير من أئمة الفقه والتشريع والإصلاح على مر القرون لنيل هذه الغاية فنالوها . على أن الإنسانية لم تزل بحاجة إلى من يوضح هذه الخطوط إذا درست بفعل العوامل المختلفة . وتعهد ذلك ضرورة لابد منها لمصلحة الدين أو لمصلحة الناس أجمعين .

وأقصد بالدين الخلاصة التى اشتركت كافة الديانات فى تقريرها وعملت الرسالات المتعاقبة على إبلاغها . ثم جاء القرآن الكريم فأفرغها فى صيغتها الأخيرة وأعطاها صبغتها النهائية وربطها بفطرة النفس السليمة والعقل الرشيد ووجه قلب الإنسان ولبه إليها عندما قال « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . . وعلى نصوص هذا القرآن أعتمد فى الاستدلال والاستنتاج مسترشداً بما قد يرد فى السنة من شرح وتفصيل . فإنى أكرر مرة أخرى أن البحث فى هذه الرسالة دينى محض أضعه تحت أنظار معتنقى المذاهب الاقتصادية ليحكموا بعده للدين وعلى الدين . . .

وطريقتنا تقوم على احترام ظواهر النصوص والتمشى مع قواعد الدين العامة فإن ضروب التأويل التى تعلق بها الكثيرون ليست إلا لوناً من تحريف الكلم عن مواضعه خدمة لبعض الأغراض الصغيرة

أو تحاشياً للاصطدام مع بعض السلطات القائمة أو تحكيما للعرف السائد والتقاليد المتوارثة فى الدين نفسه ليلين معها وينجرف فى تيارها . . لقد ورد فى الحديث مثلا : « من جدع عبداً جدعناه ومن خصى عبداً خصيناه » . فجاء قوم وقالوا : إنما قصد الشارع عبداً تحرر ! ! والغرض من هذا التأويل أن يجر الدين إلى جواز خصى العبيد ! ! وقد التصقت هذه السبة بالدين حتى جاءت الحضارة الحديثة فحرمت النخاسة [1] وما يتبعها من خصى ونحوه . وهى وما تبعها لم تحل فى دين من الأديان . بل قد وردت نصوص تحرم اختطاف الأحرار وتحرم إيذاء الرقيق بالكلمة النابية بله قتل الرجولة فيهم . ولكن سوء الفهم هنا فرض على الدين فرضاً فتجنى الناس على الدين . وجاء الدين مثلا يقرر الشورى فى الحكم فجاء بعض المفسرين يقول : إن الحاكم يستشير ثم يمضى على رأيه لاعلى الشورى وبذلك أصبح معنى النص يتحمل الشىء وضده فإذا قال القرآن : « شاورهم فى الأمر » كان معنى الآية يبيح للحاكم أن يكون ديمقراطياً وأن يكون مستبداً ! ! ما دام له حق القبول وحق الرفض . ومثل هذه التأويلات ترحب بها الحكومات المستبدة فى الشرق الإسلامى ولعلها نبتت فى ظلها وبإيعاز منها . ومن ثم قال الشيخ محمد عبده فى هذه التحلات البعيدة : « إنها نزغات شياطين وشهوات سلاطين » وقد هونت هذه التأويلات من قداسة الدين وغضت من كرامته ، ولذلك نريد أن نجليها عنه « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ».

ثم يجب أن نعرف أن هناك أهدافاً كبرى للدين يعمل للوصول إليها ولا يتخلى قط عن المطالبة بها وله مطالب أخرى ثانوية تدور مع الأهداف الكبرى ، كما يدور عقرب الثوانى فى الساعة يتجه كل ناحية ،

---

(١) خطف الأحرار على نحو ما كان يحدث فى القرون السابقة .

ولكنه فى حساب الزمن خاضع للعقربين الكبيرين لا يضطرب قط معهما . وكثير من المتدينين وقفوا عند هذه المطالب الصغرى فلم يفقهوا من الدين إلا قشوراً لا تغنى عن اللباب وقيوداً تنبو عنها روح الكتاب .

وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، يتطلب منا أن نحترم النصوص الجزئية ، وأن نحترم كذلك الدلائل العامة ، فنحن نريد أن ننصف الدين . . نريد أن نداوى بالإيمان ما يراد له أن يداوى بالكفر والعصيان ! ! وسيجد القارىء فى هذه الرسالة طائفة من الأفكار الدينية المستقلة أرجو أن تكون بداية موفقة للكلام فى هذا الموضوع الخطير .

١٣٦٦ — ١٩٤٧